الصورة الفنية في الشعر الاموي
دراسة في ضوء الدراسات البينية

أ.د. رباب صالح حسن

drrabab03@gmail.com

الجامعة المستنصرية ، كلية التربية

الملخص:

كثرت الدراسات حول الشعر الاموي تاريخاً ومنهجا ولغة وصورة. وتنوعت تلك الدراسات بين أن تكون عامة أو تتناول ظاهرة مهيمنة أو دراسات تخص الشعراء بشكل منفرد.

ولا نكاد تجد دراسة تناولت هذا الشعر وفق الدراسات البينية وتكلد تكون هذه الدراسة من الدراسات القليلة جدا ان لم تكن نادرة في دراسة الشعر الاموي وفق تبادل الادوار بين العلوم .

تتناول هذه المداخلة دراسة الصورة وفق تداخلها مع علم من العلوم وهو علم الاقتصاد.

وستجري المداخلة وفق المنهج الوصفي التحليلي القائم على نماذج شعرية منتخبة من دواوين الشعراء الامويين وفق محاور متعددة.

The artistic image in Umayyad poetry
A study in light of interdisciplinary studies

Prof. Dr. Rabab Saleh Hassan

Al-Mustansiriya University, College of Education

Summary

There have been many studies on Umayyad poetry, its history, method, language, and image. These studies varied between being general, dealing with a dominant phenomenon, or studying specific to individual poets .

There is hardly a single study that has dealt with this poetry according to interdisciplinary studies, and this study is likely to be one of the very few, if not rare, studies in the study of Umayyad poetry according to the exchange of roles between the sciences.

This intervention deals with the study of image according to its interaction with one of the sciences, which is economics.

The intervention will be conducted according to the descriptive and analytical approach based on selected poetic models from the collections of Umayyad poets according to multiple axes.

المقدمة:

لإن الدراسات الاكاديمية تميل عادة إلى البحث في التخصص الدقيق في المجال المعرفي وذلك في محاولة منها لابعاد العلم عن خطر السطحية وشبح الغموض (عمشوش، 2004).

وقد زاد الميل إلى الانعتاق من الانغلاق حول جزيئات معرفية محددة إلى الانطلاق نحو ربط المنظومة المعرفية من خلال تطور نمو الجامعات وتطورها وبما يخلق حالة من التلاحق العلمي والثقافي. ولابد من التركيز على نقطة مهمة أن هذا يعني أن هناك تأثيرات متبادلة بين التخصصات المتلاقحة، فهناك علاقة ربط بين شرح العلوم شعرياً وعلم العروض، وهناك تلاقح بين البلاغة والالسنية الجديدة وربما نجد علوم مختلفة داخلة في صميم العمل الادبي نتيجة تأثيرات البيئة، وهذا ما نحاول هذه المداخلة تبيانه والتأكيد عليه.

DOI: https://doi.org/10.47831/mjh.v3i1.851

لقد تم استقراء النصوص الشعرية الحجازية أنَّ الأثر التجاري قد وجد له منافذ من خلال الشعر، فانعكس في الصور والتعابير ليشكل حضوراً لافتاً للانتباه، وإذا لم يكن الشعر قد عُني بتسجيل عقود البيع التجارية الحقيقية، فإن مفاهيم الحياة التجارية ومعطياتها ومصطلحاتها، قد وُظفت في النص الشعري بما يخدم الفكرة التي يسعى إليها الشاعر، أياً كان الخطاب الشعري الذي يوجهه، فبدأنا نجد مصطلحات من مثل (البيع، والشراء، والسوق، والبضاعة، والربح، والخسارة، والغبن، والديون، والغريم، والقضاء، والآجل، والعاجل، والتسويف، والمماطلة، والمُعسر، واليسار)، بل أن هناك من مستلزمات التعامل التجاري بين الأفراد، ما استعان به الشعراء على تصوير مواقف معينة.

وبعد فرز النصوص الشعرية الدالة على صور أو معان يظهر فيها الأثر الاقتصادي أو التجاري، وجد البحث أنه يمكن تقسيم هذه الصور على بابين، بحسب النظام الاقتصادي الذي تسير عليه، لتسهل عملية تتبع النصوص وتأكيدها، أما البابان فهما :

أ – الصور التي تدل على البيع والشراء.

ب– الصور التي تدل على الديون وقضائها وما يتعلق بها .

المحور الاول:

إن الصور الدالة على البيع والشراء، فلا بد للشاعر ، في تجربته الإبداعية، من أن يصدر عن الواقع الذي ينتمي إليه، والبيئة التي تؤثر فيه، فالانسان ابن بيئته ، ولكي يعطي لتجربته الشعرية بعداً من الصدق والقبول في نظر الاخرين، فعن عليه أن يصدر بعفوية وتلقائية من ذلك الواقع والبيئة التي ينتمي إليها.

لكن هذا لا يعني تصويره للواقع تصويراً فوتوغرافياً لا حياة فيه، بل عليه الإفادة من معطيات ذلك الواقع بما يمنحه إبداعاً جديداً مضافاً إلى تجربته الشعرية، وهذا ما عمله الشعراء الحجازيون عندما استغلوا ما تميزت به بيئتهم من خصائص وسمات اقتصادية وتجارية، وإضافته إلى تجربتهم بما يخدم الموقف النفسي والشعري لديهم، وهذا ما نلاحظه في كثرة الصور الدالة على البيع والشراء، ولاسيما صور شعراء الغزل، ومن الأمثلة على ذلك قول المجنون (المجنون، دون تاريخ، صفحة 95) :

وَلِـــي كبـــدٌ مقروحـــةٌ مـــن يبيعنـــي ... بهـــا كبـــداً ليســـت بـــذات قـــروح

أبيـــعُ ويـــأبى النَّـــاسُ لا يشـــترُونها ... ومـــن يشـــتري ذا علَّـــة بصـــحيح

فلو فصلنا الفاظ هذين البيتين (الكبد مكررة مرتين) معروضة للبيع (مكررة مرتين) مرة للبع ومرة للشراء ، الكبد التي تساوي البضاعة بلغة أهل التجارة فيها عيوب (ذات قروح) فلا تباع، ومرة يروم شراء كبد (بضاعة) ليست بذات قروح، فيمتنع الناس عن التعامل التجاري معه فلا يبعونه ولا يشترون منه، فتعرض بضاعته (كبده) للكساد، ولاشك في ان أثر التجارة ومصطلحاتها واضح في تركيب معنى البيتين.

وفي صورة أخرى نلحظ المجنون هو المشتري، أما البائعان فإنهما صيادان لظبي وجده الشاعر شبيهاً بليلى، فأراد شراءه حباً بليلى وإكراماً لها فقال (المجنون، دون تاريخ، صفحة 111):

شَـــرَيتُ بشـــاتي شـــبه ليلـــى ولـــو أبـــوا ... لأعطيـــتُ مـــن مـــالي طريفـــي وتالـــدي

فيـــا بـــائعي شـــبهاً لليلـــى قتلتمـــا ... وجنبتمـــا مـــا نالـــهُ كـــلُّ عابـــد

فلـــو كنتمـــا حـــرين مـــا بعتمـــا معـــاً ... شـــبيهاً لليلـــى بيعـــة المتزايـــد

واعتقتماهـــا رغبـــةً فـــي ثوابهـــا ... ولـــم ترغبـــا فـــي نـــاقص غيـــر زائـــد

ويمكن بسهولة استخلاص المفاهيم التجارية من هذه المقطوعة ، فهي تحتوي على: (البيع والشراء وطرائق التعامل التجاري من وجود البائع والمشتري والبضاعة)، فالبضاعة المعروضة للبيع ظبي يشبه الحبيبة، والمشتري الشاعر، والبائعان الصيادان اللذان صادا الظبي، والسعر الذي طلبه البائعان شاة الشاعر، وأن أرادا استزادة فالشاعر يبذل جميع ماله القديم الذي ورثه والجديد الذي استحصله، لكي يحصل على هذه البضاعة، وبالامكان أن يضع البحث ملاحظة تجارية هي الأخذ بنظر الاعتبار طريقة المساومة والتزيد من البائعين ودعاء الشاعر عليهما وتذمره منهما، وهذا ما يحصل عادة في التعامل التجاري.

DOI: https://doi.org/10.47831/mjh.v3i1.851

لقد افاد الشاعر الغزليون الحجازيون من كل ما شاع في بيئتهم وأضافوه إلى تجاربهم الشعرية لاغنائها بما يمنح نصهم الشعري الواقعية المعتمدة على هذه الإفرازات البيئية التجارية ويكسبه نوعاً من الجدة والابداع، عن طريق المجاز.

وليست هذه الصور مقصورة على شاعر واحد فحسب، إذ اشترك في رسمها والإفادة من المعطيات البيئية في ذلك أغلب الشعراء الحجازيين، ولاسيما الغزليون منهم، فلو نظرنا إلى قول قيس لبنى الذي جاء فيه [1] :

فأصبحت الغداة ألوم نفسي ... على شَيْءٍ وليس بمستطاع

كمغبونٍ يعضُ على يديه ... تبين غبنهُ بعدَ البياع

فقيس جعل نفسه ولبنى طرفي علاقة حكمها الفشل نتيجة لتفريط قيس بتلك العلاقة، فأصبح يلوم نفسه على ما لا يستطيع له دفعاً، بتطليقه لبنى فأقام صورته الشعرية تلك على التشبيه بثمن بخس ولم يقيمها التقييم الذي تستحقه فبدأ يعض على يديه ندماً، لأنه أحسَّ بقيمة البضاعة بعد فوات الاوان فاستشعر الغبن.

وتتكرر الصورة نفسها عند الشاعر بقوله (قيس ولبنى، دون تاريخ، صفحة 110):

نـدمتُ على مـا كـان منـي، فقـدتني ... كمـا يندمُ المغبـون حـين يبيعُ

إن إحساس قيس بالندم على تفريطه بحبيبته جعله يكرر الصورة القائمة على التشبيه بمغبون يعضُّ أصابعه ندماً.

أما عمر فيشبه حبيبته بالدلاة النفيسة التي عرضت على تاجر مجوهرات متخصص (بن أبي ربيعة، 1983، صفحة 122/12 وما بعدها) :

كأنَّهـا الشَّـمس واتـت يـوم سـعدها ... أو درة شـوّفت للبيـع أو قمـر

ومن الصور التجارية الطريفة قول العرجي (العرجي، 1985، صفحة 157) :

وإنِّـي لموفيهـا مـن الـود كيلـه ... إذا نقـص الـود الملـول المطفـف

إن العرجي ليس من الذين نزل فيهم قوله تعالى: ﴿ **وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ * الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ** ﴾ (سورة المطففين: 1-3). لأن الشاعر قد أوفى كيله، ولم يطفف، والكيل هنا كان كيل الود والحب وليس كيل بضاعة، فهو يوفي إذا نقص كيل ود الحبيبة تجاهه، أما هي فبدأت تكون من المطففين في ميزان الحب.

لقد قدم العرجي صورة قائمة على ما اصطلحت عليه أعراف أهل الأقتصاد والتجارة (الميزان، والكيل، والتطفيف، والايفاء، والنقص) ، ويقدم صورة بيعية أخرى في قوله (العرجي، 1985، صفحة 50) :

كـأنَّ عقـاراً قهـوة مقديـة ... أبـى بيعهـا خـبٌ مـن التجـر خـادع

ثلاثـة أحـوال يحـاول فرصـة ... مـن السُـوق لا يـدري متـى السـوق نـازع

يعـلُّ بهـا أنيابهـا بعـد هجعـة ... وقـد مـال للغـور النُجـوم الطَّوالـع

فقد قدم الشاعر صورة لتعامل التجار مع البضاعة، إذ شبه طعم ريق الحبيبة في الليل بعد أن مالت النجوم إلى الغور، فالخمر المعتقة المجلوبة من مقد وهي قرية في الشام تنسب إليها صناعة الخمر الجيدة وهذه الخمرة المعتقة تجر بها تاجر يصفه العرجي بأنه مخادع، وذلك لأنه يعرف باحوال السوق (صعوده ونزوله) ومتى تحقق بضاعته الربح الذي يريد، فترك البضاعة عنده ثلاث سنوات ليحقق من هذا الاحتكار والتخزين للبضاعة فائدتين الاولى تعتيقها جيداً، وتحصيل ربح أفضل كلما عتقت اكثر، والفائدة الثانية انتظار فرصة مناسبة لطرح البضاعة، وتحقيقها الربح الذي يريده هذا التاجر المخادع.

لقد فصل لنا العرجي في طريقة تخزين البضاعة من غير عرضها في السوق متبعاً نظام العرض والطلب، فكلما قل العرض زاد الطلب ليتوصل الشاعر بعد ذلك عبر هذه العلاقة التجارية إلى ريق الحبيبة وطعمه الذي هو كطعم تلك الخمرة التي زاد الطلب عليها.

ويقول المجنون (المجنون، دون تاريخ، الصفحات 145-146) :

ومـا قهـوة صـهباء فـي متمنـع ... بحـوران يعلـو- حـين فضَّـت- شـرارها

لهـا محصـنات حولهـا هـنّ مثلهـا ... عواتـق ارجاهـا لبيـعٍ تجارهـا

[1] قيس لبنى، الديوان، ص118.

DOI: https://doi.org/10.47831/mjh.v3i1.851

بأطيـــب مـــن فيهـــا ولا المســـك بلـــه مـــــن الليـــــل اروى وقطارهـــــا

فهذه الصورة، كالصورة التي قدمها العرجي، مع فارق أن العرجي قد فصل في احوال خزن البضاعة، والمجنون اجمل، لكنهما اشتركا في الاعتماد على صورة تجارية واحدة ليصلا إلى هدف واحد هو تقديم صورة غزلية للحبيبة قائمة على تشبيه ريق الحبيبة بتلك الخمرة المعتقة التي أبى أصحابها بيعها.

والمصطلحات التجارية التي قدمتها الصورتان ((البضاعة)) وهي الخمرة المعتقة التي تشبيه ريق الحبيبة، ولم يعرض الشاعران للسعر، وإنما عرضا مصطلحا اقتصادياً اخر هو مصطلح الارجاء وهو تأجيل عرض البضاعة في السوق رغبة في تحقيق ربح اكثر، واطراف البيع هم (التجار) ، ولاشك في أن دقة استعارة هذه المصطلحات تدل على ألفة للحياة التجارية وتأثر واضح بها.

أما ابن قيس الرقيات فبضاعته الحبيبة نفسها لأنها تباع وتشتري في الاسواق أي أنها جارية، وليست بذات مركز اجتماعي متميز بدليل قوله (بيعت) فالحرائر لا تباع وإنما تباع الجواري، يقول (الرقيات، 1958، صفحة 161) :

لـــــو أنَّهـــــا بيعـــــت لأغليتهـــــا ويلـــــي بهـــــا ســـــلعةً مبتـــــاع

فاستعمل مفاهيم أهل التجارة (البيع، والبضاعة، والمشتري، والبائع، والثمن) فالبضاعة المعروضة للبيع هي الحبيبة، والبائع أما النحاسون أو أحد مالكيها، المشتري، الشاعر، والثمن، لم يحدد لكنه غالٍ (لأغليتها).

أما جميل بثينة فيذكر مصطلح الربح وعدمه، وهو من مصطلحات أهل الاقتصاد يقول (جميل، 1967، صفحة 54):

فمـــــتُّ ولـــــم تعلـــــم علـــــى خيانـــــةً وكـــــم طالـــــبٍ للـــــربح لـــــيس بـــــرابح

إن جميلاً وانطلاقاً من بيئة حجازية تجارية، وتحكم العقل التجاري بأهلها قال: ((وكم طالب للربح ليس برابح)) ليعطي مفاهيم اقتصادية تجارية.

ومثلما افاد اصحاب الغزل بشقيه العذري والواقعي، من معطيات البيئة التجارية الحجازية وإفرازاتها، أفاد أهل السياسة أيضاً من تلك المعطيات والافرازات، فكانت هذه الصورة التي قدمها كثير في المدح السياسي (كثير عزّة، 1971، صفحة 336) :

ولـــــو يســـــتطيع المســـــلمون لقســـــموا لـــــك الشَّـــــطر مـــــن اعمـــــارهم غيـــــر نـــــدم
فعشـــــت بـــــه مـــــا حـــــج لله راكـــــب مغـــــذٌّ مطيـــــفٌ بالمقـــــام وزمـــــزم
فـــــأربح بهـــــا مـــــن صـــــفقةٍ لمبـــــايعٍ وأعظـــــم بهـــــا، اعظـــــم بهـــــا، ثـــــمَّ اعظـــــم

لقد تصور كثير، وانطلاقاً من تأثير بيئي اقتصادي مباشر، عقد صفقة بين الممدوح والمسلمين لو يستطيعون إلى ذلك سبيلاً، بتقسيم اعمارهم إلى شطرين، شطر لهم، وشطر للممدوح، يعطونه من غير ندم فيعيش عيشة الخالدين لا يموت ولا يهرم (فعشت ما حج لله راكب)، وفي البيت الاخير، يتصور تلك الصفقة اعظم صفقة يعقدها مبايع، ومن ربحها أن الشاعر كرر عبارة (اعظم بها) ثلاث مرات، واستعمل الشاعر مصطلحات أهل التجارة وهي (البائع وهم المسلمون)، والمشتري وهو الخليفة والبضاعة هي شطر من اعمار المسلمين، وسعر تلك البضاعة دون مقابل اكراماً وحباً للخليفة.

وسيعرض البحث بعض الصور ذات الدلالة الاقتصادية تاركاً لمتذوق النص الشعري الحجازي، حرية تقويم هذه الصور تجارياً واستخراج مفاهيمها الاقتصادية، يقول المجنون (المجنون، دون تاريخ، صفحة 94) :

بمـــا نلـــت يـــا ليلـــى مـــن الحســـن والبهـــا وعـــــزَّة أيـــــاء كـــــرام جحـــــاجح
تعـــــالي نبـــــع دينـــــا بـــــدنيا لذيـــــذةٍ فمتجـــــر اربـــــاب الهـــــوى أي رابـــــح

ويقول عمر (بن أبي ربيعة، 1983، صفحة 303، 463) :

فمـــــت ولـــــم تعلـــــم علـــــي خيانـــــة ألا رب بـــــاغي الـــــربح لـــــيس بـــــرابح

ويقول المجنون (المجنون، دون تاريخ، صفحة 256) :

وقصـــــيرة الايـــــام ود جليســـــها لـــــو بـــــاع مجلســـــها بفقـــــد حمـــــيم

ويقول (المجنون، دون تاريخ، صفحة 276):

أيـــــا بـــــائعي ليلـــــى بمكَّـــــة ضـــــلَّةً تبايعتماهـــــا هـــــل يســـــتوي الثَّمنـــــان
فمـــــا غـــــبن المبتـــــاع ليلـــــى بمالـــــه بـــــل البائعـــــا ليلـــــى هُمَـــــا غبنـــــان

DOI: https://doi.org/10.47831/mjh.v3i1.851

ويقول قيس لبنى (قيس ولبنى، دون تاريخ، صفحة 59) :

فلســـــت بمبتـــــاعٍ وصـــــالا بوصـــــلها ولســـتُ بمفـــشٍ ســـرَّها حـــينَ أغضـــب

ويقول العرجي (العرجي، 1985، صفحة 114) :

إذا ذكـــــــر النَّخـــــــل اربابهـــــــا وقـــــــالوا مبتكرهـــــــا المـــــــبلح
تعجـــــل عـــــن جريـــــة الماذيـــــان فنـــــور أو بعضـــــه المشـــــقح
يـــــرى الســـــائمون إذا مـــــا اشـــــترى جناهـــــا امـــــرؤٌ أنَّـــــه يـــــربح

لقد تحولت مصطلحات الاقتصاد والتجارة من وضعها الحقيقي إلى وضع جديد عليها، ومنحت الحياة والحيوية بتوظيفها في فن يتعامل مع كل ما يمنح الرؤية الابداعية أبعاداً جديدة وطريفة، شكلت انحرافاً أسلوبياً، وخرقاً يصدم ذهنية المتلقي.

المحور الثاني:

أما الباب الثاني من الصور ذات الدلالة الاقتصادية فهي الصور التي تدل على الدين وقضائه.

وفي هذه الصور الاقتصادية نلحظ الفاظ مثل (الدين، الغريم، القضاء، المماطلة، التسويف، المعسر، اليسر)، وغيرها مما يدخل ضمن مصطلحات الدين، فأفاد الشعراء منها ومما تؤديه من معان وتوظيفها في الشعر لتمنح شعرهم جدة وطرافة، من ذلك قول ابن قيس الرقيات (الرقيات، 1958، صفحة 161) :

مـــــا لـــــذا الهـــــم لا يـــــريمُ فـــــؤادي مثلمـــــا يلـــــزم الغـــــريم الغـــــريم

فالشاعر يتعجب من هذا الهم الذي لا يفارق فؤاده نتيجة حبه، فالهم ملازم له كما يلازم الدائن المدين حتى يستوفي دينه منه، فألفاظ الاقتصاد هنا كانت الغريم والملازمة حتى قضاء الغرم (الدين)، فالشاعر هو المدين، والهم هو الدائن فقدم صورة لتلازم الدائن مع المدين ويقول جميل (جميل، 1967، صفحة 22) :

وكـــم لـــي عليهـــا مـــن ديـــون كثيـــرةٍ طويـــلٌ تقاضـــيها بطـــيء قضـــاؤها

فلجميل على بثينة ديون وهذه الديون كثيرة تراكمت منذ وقت طويل من غير أن تقضيهما، أو إنها تقضيها ببطء.

فجميل هو الدائن ، وبثينة هي المستدينة، ويقدم صورة أخرى بقوله (جميل، 1967، صفحة 134) :

تســـوَّف دينـــي وهـــي ذات يســـارةٍ فحتَّـــى متـــى دينـــي لـــديها يســـوَّف

فالغريم هنا الحبيبة وهي ذات يسار ورغم هذا تسوف وتماطل في اداء دينها، لقد اوحت مخيلة الشعراء الحجازيين – وبتأثير بيئي اقتصادي مباشر – للشعراء الافادة من هذه المعاني، ووظفوها في شعرهم بشكل مجازي يخدم الفكرة التي يرمون إليها، فجميل بدلاً من أن يقول أن الحبيبة بأنها وعدته تبادله الود والحب، وإنها بدأت بإخلاف الوعد معه، عمد إلى استعمال الفاظ تؤدي دلالة اقتصادية تجارية تمنح أبياته الشعرية جدة وطرافة، وواقعية، لأن مثل هذه الامور مما شاع في البيئة الحجازية. أما ليلة المجنون فإنها تسوف في قضاء دينها كما سوفت بثينة مع جميل، يقول المجنون (المجنون، دون تاريخ، صفحة 279) :

مـــن عـــاذري مـــن غـــريمٍ غيـــر ذي عســـرٍ يـــأبى فيمطلنـــي دينـــي ويلـــويني
لا يبعـــدُ النَّقـــد مـــن حقّـــي فينكـــره ولا يحـــدِّثني أنْ ســـوف يقضـــيني

فليلة ذات يسار وذات قدرة مادية، لكنها رغم ذلك تسوف وتماطل، ولا تدفع ما عليها، واوقعت المجنون في حيرة من أمره فلا هي تنكر دينه، ولا هي تقضيه، وهذه حال العذريين دائماً، ووجد في البيت مصطلحات اقتصادية من مثل (الغريم، وغير ذي عسر، والمماطلة، والدين، والنقد، والحق، والقضاء).

وإذا كان لأصحاب الغزل العذري ديون مستحقة الدفع على الحبيبات ولم يدفعن مع أنهن ذوات غنى، ويسار، فان العرجي قد تلازم مع الحبيبة صبابة كما يأخذ الغريم بفضل ثواب المعسر ليستحصل ديونه المستحقة يقول العرجي (العرجي، 1985، صفحة 178) :

فتلازمـــــا عنـــــد الفـــــراق صـــــبابةً أخـــــذ الغـــــريم بفضـــــل ثـــــوب المعســـــر

DOI: https://doi.org/10.47831/mjh.v3i1.851

لقد عمد العرجي إلى تصوير لحظة الفراق مع الحبيبة، ولما كان الشعراء يعمدون إلى تشبيه شيء بشيء قريب منه، لم يجد العرجي ما يقرب الصورة بدقائقها وجزئياتها وحرفيتها سوى ما شاع في بيئته من معاملات تجارية وقد اكسب هذا صورته واقعية اكثر بتشبيهه للتلازم والمعانقة مع الحبيبة بتلازم الدائن للمدين، وأخذه بقوة بفضل ثوب هذا المدين المعسر في محاولة لاستحصال ديونه.

والملاحظ هنا أن الشاعر لم يعمد إلى الغريم ذي اليسار كما فعل المجنون، وجميل، بل لجأ إلى المعسر لأنه لا يملك شيئاً فيعطيه ولا حتى ما يؤجله، فتكنو صورة التلازم أقوى، في حين لو لجأ إلى مدين ذي يسار لما اعطتنا الصورة معنى ذلك التلازم الشديد.

وإذا كان بالامكان، في الصور التجارية، التي عرضناها تمييز الدائن من المدين فإننا في صورة العرجي التشبيهية لم نميز بينهما، فلم نعرف من هو الدائن ومن هو المعسر.

وما دامت حبيبات عمر ذوات مراكز اجتماعية متميزة، فلابد أنهن ذوات يسار إلا أنهن يمطلن دينه ويسوفن في الدفع، يقول (بن أبي ربيعة، 1983، صفحة 205، 377) :

لعمـــــرك أنّنـــــي مـــــن ديـــــن نعـــــم ... لكالـــــداعي إلـــــى غيـــــر المجيـــــب
ومـــــا نعـــــم ولـــــو علقـــــت نعمـــــاً ... يجازيـــــه النـــــوال ولا مثيـــــب
ومـــــا تجـــــزي بقـــــرض الـــــود نعـــــم ... ولا تعـــــد النـــــوال إلـــــى قريـــــب

أن تكرار اسم الحبيبة اربع مرات خلال ثلاثة ابيات يوحي بمدة صعوبة استحصال الدين والقرض منها، وكأنه يشبه دائناً يكرر اسم مدينة غيضا وغضباً لأنه لم يدفع ديوناً مستحقة، فعمر يطالب مدينة، ويدعوه لقضاء دينه لكنها دعوة بلا مجيب، فلا حياة لمن تنادي [1] ، فلا هي تجزي فترضى الود، ولا هي تعطيه وعداً بقضائه قريباً، ويقول (بن أبي ربيعة، 1983، صفحة 384، 394) :

مـــــا انـــــت والوعـــــد الـــــذي تعـــــديننـي ... إلاّ كبـــــرق ســـــحابةٍ لـــــم تمطـــــر
نقضـــــي الـــــديون ولـــــيس ينجـــــزُ عـــــاجلاً ... هـــــذا الغـــــريم لنـــــا ولـــــيس بمعســـــر

يصور عمر نفسه بانه يقضي ديونه أن كانت عليه ديون، لكن الحبيبة وهي الغريم التي لا تنجز وعدها فتدفع ديونها بسرعة مع أنها ذات قدرة مالية، وذات يسار. أما المفاهيم التجارية التي سادت البيت الشعري فهي (الديون، والقضاء، وعدم الانجاز العاجل، الغريم، والمعسر).

وإذا كانت حبيبات عمر، قد سوقن وماطلن في قضاء ديونهن، فإن الثريا ابرز حبيبات عمر، قد قضت كل ما عليها من ديون لعمر، فيقول (بن أبي ربيعة، 1983، صفحة 142، 304 وما بعدها) :

وضـــــربنا الحـــــديث ظهـــــراً لـــــبطن ... وآتينـــــا مـــــن امرنـــــا مـــــا اشـــــتهينا
فلبثنـــــا بـــــذاك عشـــــرا تباعـــــاً ... فقضـــــينا ديوننـــــا واقتضـــــينا

فلا دائن ولا مدين.

وإذا كان البحث قد قدم صوراً من الحوار الذي أفرزه الاسلوب القصصي مبرزاً السهولة اللغوية، وإنماطاً من اللهجة النسائية، واكتشف تشداً بنئياً ساعد على وحدة القصيدة، كما سيدرس البحث، فإنه في هذا المجال قدم صوراً من الحوار التي اعتمدت اللغة التجارية اساساً في بنائها، يقول كثير (كثير عزّة، 1971، صفحة 229) :

أقـــــول لهـــــا عزيـــــز مطلـــــت دينـــــي ... وشـــــرّ الغانيـــــات ذوو المطـــــال
فقالـــــت ويـــــب غيـــــرك كيـــــف أقضـــــي ... غريمـــــاً مـــــا ذهبـــــت لـــــه بمـــــال

ولتوضيح الصورة حاولنا نثر هذه الابيات على شكل حوار قصصي:

- كثير: لقد اخرت ديني وماطلتني يا عزيز، وشرّ الغانيات صاحبات المطال.
- عزة: ويل لغيرك!!! كيف أقضي دينك وأقضي دين غريم لم اخذ منه مالاً؟!

[1] هذه الكلمة هي عجز بيت في شعر كثير سارت مسرى الامثال وصدره:

لقد اسمعت لو ناديت حياً ... ولكن لا حياة لمن تنادي (الديوان ص222)

DOI: https://doi.org/10.47831/mjh.v3i1.851

أن الحوار الذي ابدعه كثير على لسانه ولسان عزة ينم عن شفافية صادقة، وجواب عزة كان يعطي دلالة واضحة لما يريد أن يوصلوه من أن التسويف والمماطلة والامتناع عن اداء الدين إنما هو دلالة اكيدة على تمنع المرأة الحجازية المتغزل بها ودلالة عن اعتزازها بنفسها وكرامتها، وأن حاول البعض تصويرها بأنها امرأة خارجة عن حدود الالتزام والاخلاق.

وتجري محاكمة بين جميل وبثينة وطرف ثالث جعلاه حكماً وقاضياً يحكم بالعدل بينهما ويعطي كل ذي حق حقه، يقول جميل (جميل، 1967، صفحة 165):

فقلنـــا مـــا قضـــيت بـــه رضـــينا ... وأنـــت بمـــا قضـــيت بـــه كفيـــلُ
قضـــاؤك نافـــذٌ فـــاحكم علينـــا ... بمـــا تهـــوى ورأيـــك لا يفيـــلُ
فســـل هـــذي متـــى تقضـــي ديـــوني ... وهـــل يقضـــيك ذو العلـــل المطـــول
فقالـــت أنَّ ذا كـــذبٌ وبطـــل ... وشـــرٌّ مـــن خصـــومته طويـــل
ولـــم اخـــذ لـــه مـــالاً فيلفـــي ... لـــه ديـــن علـــيَّ كمـــا يقـــول

لقد قبل الحبيبان حكومة هذا القاضي ورضيا بما يحكم، فعرض جميل دعوته وهي ان له على بثينة ديوناً لم تقضها، فترد بثينة أنها لم تأخذ منه مالاً ليجد له عليها ديوناً.

لقد قدم الحبيبان حكومة هذا القاضي ورضيا بما يحكم، فعرض جميل دعوته وهي ان له على بثينة ديوناً لم تقضيها، فترد بثينة أنها لم تأخذ منه مالاً ليجد له عليها ديوناً.

لقد قدم هذا الحوار مظهراً من مظاهر السهولة اللغوية، والدفاع عن النفس وقدم صورة من صور التعامل التجاري بين الدائن والمدين، وأدلى أهل السياسة بدلوهم في الإفادة من معاني (الدين، وقضائه) في أداء معان تخدم الموقف الشعري الذي يرومون، يقول ابن قيس الرقيات (الرقيات، 1958، صفحة 194):

ارقتنـــــي بـــــالزابين همـــــومٌ ... يتعـــــاورنني كـــــأنّني غـــــريمُ
ومـــــنعنَ الرقـــــاد منّـــــي حتّـــــى ... غـــــار نجـــــمٌ واللّيـــــل ليـــــلٌ بهـــــيمُ

فالشاعر في موقف رثاء سياسي لابرز قادة الحزب الزبيري الذي ينتمي إليه الشاعر (مصعب بن الزبير)، فأرقت الهموم الشاعر بفقد المرثي، كما تؤرق الديون الثقيلة الغريم، فالشاعر منع عنه النوم بسبب عظم المصيبة والهم الذي هو فيه، وقد اتبع الشاعر اسلوب المقاربة التشبيهية بين شيئين للوصول إلى صورته الرثائية المعتمدة في بنائها على اساس تجاري ، ويقول كثير عزة (كثير عزّة، 1971، صفحة 165) :

وذي مغـــرم فرجـــتَ عـــنْ لـــونِ وجهـــه ... صـــبابة ذي دجـــن مـــن الهـــمِّ مظلـــم

فالممدوح قد فرج عن صاحب الدين الثقيل بقضاء دينه، وإزاحة اللون الأسود عن لون وجهه كناية عن الهم والحزن والذلة التي تعتري المدين، ويقول (الأحوص الأنصاري، 1970، صفحة 145):

وكـــمْ مِـــنْ غـــارم فرجـــت عنـــه ... مغـــارم كـــل محملهـــا ثقيـــل

فالممدوح عند كثير يفرج عن أصحاب الديون، وكل دين من هذه الديون حملها ثقيل على الغريم، لكن الممدوح بسخائه وسماحته، وكرمه، قد فرج عنه، وجعل حمله خفيفاً، ويتناول الأحوص المعنى ذاته فيقول (جميل، 1967، صفحة 65) :

وشـــكوت غرمـــاً فادحـــاً فحملتـــهُ ... عنّـــي وأنـــتَ لمثلـــهِ متحمـــل

فالغرم هو الدين الثقيل الذي ينوء بحمله الأحوص فحمله الممدوح، لأن مثله من يتحمل مثل هذا الغرم الفادح كناية عن الكرم والسخاء.

وسيعرض البحث مجموعة من الأبيات التي وجد فيها دلالة على الدين وقضائه، أو المماطلة والتسويف في الدفع.

يقول جميل (جميل، 1967، صفحة 75) :

إذا قلـــت أنســـاها، تـــردد حبهـــا ... كـــذي الـــدين يقضـــي مغرمـــاً مـــا كـــان

ويقول المجنون (المجنون، دون تاريخ، صفحة 248) :

فمـــا لـــك مســـلوب العـــزاء كأنَّمـــا ... تـــرى نـــأي ليلـــى مغرمـــاً أنـــت غارمـــه

DOI: https://doi.org/10.47831/mjh.v3i1.851

ويقول عمر (بن أبي ربيعة، 1983، صفحة 301) :

أصـــــبح القلـــــبُ بـــــالقتول حزينـــــاً هـــــائم اللـــــب لـــــو قضـــــته الـــــديونا

ويقول كثير عزة (كثير عزّة، 1971، صفحة 143) :

قضـــــى كـــــلُّ ذي ديـــــن فـــــوفَّى غريمـــــهُ وعـــــزةُ ممطـــــولٌ معنـــــىً غريمهـــــا

وإذا ما فتشنا عن الدلالات البيانية في بناء هذه الصور المعتمدة على الأثر الاقتصادي، نجد أن الاستعارة هي الغالبة في هذا المجال، إذ استعار الشعراء المعاني التجارية ووظفوها في خدمة الفن الشعري، فاستعاروا الدين أو القرض لوعد الحبيبة بالوصال، بدليل أن الحبيبة في محاججتها للحبيب تقول أنها لم تأخذ منه مالا، مما يؤكد أن الدين والقرض هو الوعد، وليس دينا حقيقياً كما أن دلالة المطل، والتسويف والتأجيل تعني ممانعة الحبيبة في الوفاء بما وعدت.

واعتمد الشعراء الحجازيون وظيفة التشبيه في التقريب بين مفردات الصور في بناء صورهم التجارية سواء أكانت الصور من الأنواع المعتمدة على البيع والشراء، أم من الأنواع المعتمدة على ذكر الفاظ الدين وقضائه.

والأمثلة الأخيرة خير دليل على ما ذهب إليه البحث، فاعتمد الشعراء أداتي التشبيه (الكاف، وكأن) حتى كانت من أكثر الأدوات استعمالاً ودوراناً في الشعر الحجازي، ولاسيما الغزلي منه.

لقد وجد الشعراء في التشبيه وسيلة وأداة توصيل لما أرادوا توصيله من أفكار ومعان ومشاعر، فقيس لبنى كالمغبون، وابن قيس الرقيات كالغريم، وريق الحبيبة في شعر المجنون والعرجي كالخمرة المعتقة التي أبى التجار بيعها.

لقد كانت البيئة الحجازية زاخرة بكل ما أمد شعراءها بصور وأخيلة احسوا أنها تقدم إبداعاً مضافاً لما قدموه.

وإذا كان د. عبد القادر القط قد وجد أن الشعراء العذريين الحجازيين ((لم يكونوا من ذوي الخيال، المحلق، ولا من القادرين على ابتداع الصور الشعرية المركبة أو انبعاث كوامن اللغة وطاقتها)) (القط، 1971، صفحة 164) فإن البحث يؤكد أن بناء الشعراء الحجازيين للصور كان للبيئة فيه أثر كبير، وإن كانوا لم يبتدعوا صوراً خيالية أو مركبة فذلك نابع من كون الخطاب الفني الذي يوجهونه يعتمد في الغالب الأعم على مقاربات تشبيهية بسيطة، وإن كان البحث لا يعدم وجود صور جميلة وجديدة، ومنها ما امتلكته الحبيبة من القدرة الخارقة على احياء الموتى بحسب ما يتخيل الشعراء، وفي استعمالاتهم المجازية لعقود والشراء والدين والقضاء مما يدلل على مرونة عالية في استعمال الحقيقي فيما هو مجازي.

الخاتمة

بعد هذا الاستقرار والتحليل لنماذج من الشعراء الأموي الحجازي تتضح لنا نتيجة مهمة ان الشعراء في ذلك العصر وفي كل العصور يمثلون صورة لواقع البيئة التي يعيشونها باختلاف انماطها.

1. إن هذه المداخلة كشفت وأكدت على وجود علوم تتقح داخل البنية الادبية لتعطي صورة للبيئة التي خرجت منها من جهة ولتمثل قدرة الشعراء على تطويع بعض المفاهيم الاقتصادية والتجارية في ابراز صورهم الشعرية سواء كانت تشبيهية أو استعارية.
2. وجدنا في هذه المداخلة أن علاقات البيع والشراء والعاجل والآجل، والدين وقضاء الدين والمبادلة والبضائع وجودة البضاعة ورداءتها حاضرة في صورة شعراء الغزل الحجازي.
3. الدراسات البينية حقل جديد ومهم في ربط العلوم ببعضها.
4. تقدم الدراسات البينية مادة مهمة في ربط البيئة وتمثلاتها السياسية والاجتماعية والاقتصادية بالادب وتغيير ذلك الأدب عن بيئته التي نشأ فيها.
5. البيئة الحجازية بيئة اقتصادية تجارية لهذا لحظنا تناغما بينا بين الاقتصاد والسعر في رسم الصور الشعبية ولا سيما في غرض الغزل
6. أكد البحث على قدرة الشعراء الامويين على تشكيلي صورهم وصوغ لغتهم وفق ما تبدت عنه بيئتهم.
7. اعتمد الشعراء الامويون في تشكيل صورهم ذات الطابع الاقتصادي على التشبيه لقدرة هذا الملمح البياني على احتواء تجاربهم الشعبية والفنية.

DOI: https://doi.org/10.47831/mjh.v3i1.851

المراجع:

القرآن الكريم .

الأحوص الأنصاري. (1970). *ديوان الأحوص الأنصاري*. (جمعه وعلق عليه: عادل سليمان) القاهرة: الهيئة المصرية للتأليف والنشر.

الرقيات. (1958). *ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات*. (تحقيق وشرح: محمد يوسف نجم) بيروت، لبنان: دار صادر.

العرجي. (1985). *ديوان العرجي برواية أبي الفتح عثمان بن* جني (الطبعة 1). بغداد: شرح وتحقيق: خضر الطائي، ورشيد العبيدي.

المجنون. (دون تاريخ). *ديوان مجنون ليلى*. (تحقيق: أحمد عبد الستار فراج) مصر: دار مصر للطباعة.

جميل. (1967). *ديوان الشعر العذري، ديوان جميل* (الطبعة2). (جمع وتحقيق: د. حسين نصار) مصر: مكتبة مصر.

عبد القادر القط. (1971). *في الشعر الإسلامي والأموي*. بيروت: دار النهضة العربية للطباعة والنشر.

عمر بن أبي ربيعة. (1983). *شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة* (الطبعة2). (تحقيق : محي الدين عبد الحميد) لبنان: دار الأندلس للطباعة.

قيس ولبنى. (دون تاريخ). *ديوان قيس ولمنى*. (جمع وتحقيق وشرح: د. حسين نصار) مصر: مصر للطباعة والنشر.

كثير عزّة. (1971). *ديوان كثير عزّة*. (تحقيق: د. إحسان عباس) بيروت: دار الثقافة.

مسعود عمشوش. (2004). *من التخصص إلى الدراسات البنية*. اليمن: مقالة منشورة في الملحق الثقافي لصحيفة الثورة اليمنية، ديسمبر.

References:

The Holy Quran.

Abdul Qadir Al-Qat. (1971). On Islamic and Umayyad Poetry. Beirut: Dar Al-Nahda Al-Arabiya for Printing and Publishing.

Al-Ahwas Al-Ansari. (1970). Diwan Al-Ahwas Al-Ansari. (Compiled and annotated by: Adel Suleiman) Cairo: Egyptian Authority for Authorship and Publishing.

Al-Arhi. (1985). Diwan Al-Arji narrated by Abu Al-Fath Othman bin Jinni (1st edition). Baghdad: Explanation and investigation by: Khader Al-Ta'i and Rashid Al-Ubaidi.

Al-Ruqyat. (1958). The Diwan of Ubayd Allah ibn Qays al-Ruqyāt. (Edited and explained by: Muhammad Yusuf Najm) Beirut, Lebanon: Dar Sadir.

Jamil. (1967). Diwan of Udhri Poetry, Jamil's Diwan (2nd Edition). (Compiled and verified by: Dr. Hussein Nassar) Egypt: Misr Library.

Kathir Azza. (1971). Diwan Kathir Azza. (Edited by: Dr. Ihsan Abbas) Beirut: Dar Al Thaqafa.

Masoud Amshoush. (2004). From Specialization to Structural Studies. Yemen: An article published in the cultural supplement of the Yemeni newspaper Al-Thawra, December.

Omar bin Abi Rabi'a. (1983). Explanation of the Diwan of Omar bin Abi Rabi'a (2nd edition). (Edited by: Muhyi al-Din Abdul Hamid) Lebanon: Dar Al-Andalus for Printing.

Qais and Lubna. (undated). Diwan of Qais and Lubna. (Compiled, verified and explained by: Dr. Hussein Nassar) Egypt: Misr Printing and Publishing.

The Madman. (undated). Diwan Majnun Layla. (Edited by: Ahmed Abdel Sattar Farag) Egypt: Dar Misr Printing House.

DOI: https://doi.org/10.47831/mjh.v3i1.851